محاورة

تحاور أخوان : كافر ومؤمن ، منكر للبعث ، ومعتقد فى البعث .

والكافر أطغاه غناه ، والمؤمن قانع بما قسم الله .

واضرب لهم مثلا ، رجلين ، جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحَفَفْنَاهُما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين ، آتت أُكُلَهَا ، ولم تظلمْ منه شيئاً ، وفجَّرنا خِلَالَهُما نهرا ، وكان له ثَمَر .

فقال الكافر لأخيه المؤمن : أنا أكثر منك مالًا ، وأعزُّ نَفَرا .

واجتمع على هذا الكافر طغيانه ، واعتقاده أن غناه كان عن استحقاق وجدارة ، واعتقاده أن المَحْظِىَّ فى الدنيا محظِىٌّ فى الآخرة ، وأن نعيم الدنيا مخلَّدٌ مقيم لا يَبيد .

* * *

وأنه لا قيامة ولا بعث ولا ساعة ولا حشر ولا نشر ؛ وأنه حتى لو كان هناك بعثٌ وحياةٌ أخرى ، بعد الموت ، فإنه سيجد هناك نعيما خيرا من نعيم هذه الدنيا .

ودخل جنته ، وهو ظالمٌ لنفسه ، قال : ما أظن أن تَبِيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رُدِدْتُ إلى ربى لأَجِدَنَّ خيراً منها مُنْقَلَبا

* * *

كلامٌ فيه عُتُوٌّ وصَلَف ، وغرور يُعمى البصيرة والبصر ، ويُغرى بالمغايظة ،

ويجرح إحساس المحروم ، ويتحدَّى حكمة الله الذى يقول : نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًا ، ورحمةُ ربك خيرٌ مما يجمعون .

* * *

قال له أخوه المؤمن ، وهو يحاوره ، خائفاً عليه ، حَذِرًا على نعمته أن تزول بسبب كفره : ياأخى ، تذكرْ أن الله الذى وهب لك هذه الجنة ، وهذا الغنى ، وهذه العُزْوة من الأولاد ، هو الذى خلق أبانا آدم من تراب ، وهو الذى خلقك من نطفة قذرةٍ مَهِينَة ، وهو الذى صوَّرك وأنشأك وسوَّاك رجلًا غنياً وافر الثراء .

أفلا جعلتَ شكره إيماناً وتقوى وخوفاً من غضبه ؟ .

أفتجعلُ الكفر بدل الإيمان ، والتحدِّى بدلًا من الحمد والشكران ؟ .

ياأخى : إن كنت تكفر بالله وتتحداه ، وتتحدى الفقراء من عباده ، فأنا أُشْهِدُك ، وأُشهد نفسى ، على أنه ليس لى ربٌّ سواه ، ولا شريك له فى ملكه ، ولا أحد يتحداه فيما قضاه .

ياأخى : هلَّا حصَّنْتَ نعمتك بالإيمان ، وعوَّذتها وحَمَيْتَها بذكر الله ؟ وشكرتَ عليها بتسبيح الله ؟ واعترفْتَ بأن هذا كله ، مما تراه ، ليس لك فيه يدٌ ولا قوةٌ ، ولا حَوْل .

ولولا إذْ دخلتَ جنتك ، قلتَ ما شاء الله ، لا قوةَ إلا بالله ! .

ياأخى : اتق الله ، ولا تُعَيِّرنى بفقرى ، ولا تتحدانى بغناك .

إنْ ترنى أنا أقلَّ منك مالًا وولدا ، فعسى ربى أن يَتَقَبَّلَ منى إيمانى ، ورِضاىَ بما قَسَمَ لى ، وقناعتى ، وأن ينظر إلىَّ بعين رحمته ، فقد رُضْتُ نفسى على إذعانها لقضائه ، وعلى تحمُّلها لاستفزازك ، وصبرها على أذاك .

وأسألُ ربى ، أن يمنحنى رضاه ، ويدخلنى جنته ، وهى خيرٌ من جنتِك هذه التى تُباهينى بها .

* * *

ولعل ربنا ، ينظر إليك بعين غضبه ، فيجزيك بكفرك ، وينزل على جنتك هذه صَواعِقَ من السماء ، وسمومَ رياحها ، وهُوجَ عواصفِها وأعاصيرها ، فتطِيحُ بشجرها وثمرها ، وتكتسِحُها ، فتصبح قحْلاء جَرْداء ، كالحجر الأجرد الجلمود .

* * *

وليس بعزيز على الله المنتقم الجبار ، أن يجعل ماءها يَغُور فى جَوف الأرض تبْتلعه فيغِيض ، فلا تستطيع أن تطلبه ، أو تحصل عليه .

* * *

ودعوةُ المظلوم ، ليس بينها وبين الله حجاب ، تطرقُ أبواب السماء ، فتفزع لها الملائكة ، فيجأرون بالدعاء معه ، فيستجيب الله ، وقد استجاب !

ونزلت النازلة ، وأحاط الغضب الإلٰهى بجنته وشجرها وعروشها وثمارها ومائها وعزِّها وخيرها ، فأصبحت خاوية خرابا يبَابا .

ورأى الكافر جنته ، وما نزل بها ، فجُنَّ جنُونُه ، وطار صوابُه ،

وأصبح يقلب كفيه ندماً وفجيعة ، وحسرةً وأسفا ، وتوبةً تُقبَل أو لا تُقبل .

فما أشبهها بتوبة فرعون حين أدركه الغرق ، فقال له ربه رافضاً توبته : آلآن ! وقد عَصَيْت قبلُ ، وكنتَ من المفسدين ؟ .

* * *

ويقول الكافر ، يا ليتنى لم أُشْرِكْ بربى أحدا ، ولم تكُنْ له فِئَةٌ ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصرا .

فأين غناه ، وجنَّتُه ، وثمرُه ، وماؤه ، ونفرهُ ، وعُزوتُه ؟ .

بل أين كُفره ، وشِركهُ ، وإنكارُه البعث ، وتحدِّيه ، وطُغْيانه ؟ .

* * *

لقد ذهب عنه كل أولئك ، ولم يبقَ إلا وجهُ الله ، يلْقاه ، فيأخذُه بما جَنَاه .

* * *

هنالك الوَلَايةُ لله الحق ، هو خيرٌ ثواباً ، وخيرٌ عُقْبَى .

حرمان بحرمان

اللهم أعط مُنفقاً خلفاً ، وأعط مُمسكا تلفاً .

دعوةٌ استجابها الله ، فأصاب أهل مكة بالقحط ، فأجدبت السماء والأرض لمَّا كزَّ الأغنياء على الفقراء ، وحرموهم نصيبهم الذى فرضه الله بالزكاة .

ونزل القرآن : إنا بلَوْناهُمْ ، كما بلونا أصحاب الجنة . فَحَرَمْنَاهم حِرماناً بحرمان .

* * *

هذه الجنة ، كانت باليمن ، ضاحية من ضواحى صنعاء ، وكانت لرجل صالح كريم ، يجعل للفقراء نصيباً من جنته ، ويحدد نصيبهم بالثمار التى يُسقطها القِواء ، والتى يفوتها مِنجل الحصَّاد ، والتى تقع بعيداً عن البساط الذى يفرش تحت الشجر ليسقط عليه الثمر . إنما هو نصيب الفقراء ، يدعهم يلمُّونه ويأخذونه .

فكانت زكاة ، وكانت بركة ، والزكاة نماء وزيادة .

* * *

فلما مات ، ورثه أبناؤه فى تلك الجنة ، وكانوا أشحَّاء بخلاء .

فاستكثروا نصيب الفقراء ، وبخلوا عليهم به ، وتشاوروا فيما بينهم أن يجمعوا ثمارهم فى فجر النهار ، قبل أن يصحو الفقراء ، وقبل أن يقفوا لهم على باب الجنينة ، وقبل أن يتورطوا بين حرمانهم وبين إعطائهم ، كما كانوا يأخذون .

* * *

ولم يكن رأيهم بالإجماع ، فقد استحسنه ووافق عليه بعضهم ، وتوجَّس منه وخاف عاقبته أخوهم وحذرهم أن ينقضوا عهد أبيهم ، وأن يبطلوا سنة حسنة سنَّها لهم ، وأنذرهم غضب الله عليهم ، إن هم أغضبوه ، بحرمان الفقراء ، والفقراء عيال الله .

* * *

وبهذا الخلاف فى الرأى ، لم ينتهوا إلى إجماع ، ولم يُشفعوا مشيئتهم هذه بمشيئة الله ، ولم يقولوا إن شاء الله هذا وفَّقنا إليه ، ومكَّننا من تنفيذه .

إذ أقسموا : ليصرِمُنَّها ويجنون ثمارها مُصبحين ، ولا يستثنون .

وهل جزاء إحسانِ أبيهم إلا الإحسان ، وجزاء بخلهم وشحهم إلا الحرمان ؟

* * *

وناموا على نيَّتهم هذه ، ولكن عين الله لا تنام . فأرسل على الجنة غضبه ، وطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت الحديقة كالصَّريم ، كالحِمْل المصروم ، الذى تفككت حباله ، وهو على ظهر الجمل أصبحت مجْنِيَّة مجردة من ثمارها ، سوداء جرداء كالليل فى ظلمته ، وكالرمال المحرقة فى صحراء تكويها شمس حارقة .

* * *

فتنادَوْا مُصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إنْ كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، يكلم بعضهم بعضاً همساً خافتاً ، حتى لا يسمع المساكين . وقبل أنْ يَصْحُوَ الفقراء المحتاجون . أَلاَّ يَدْخُلَنَّها اليومَ عليكم مسكين ، وهم يعتقدون أنهم على حَرْد الفقراء وَنكَدِهم قادرون .

وما كان أشد انزعاجهم وفجيعتهم حين رأوْها . فقد اتهموا عقولهم بأنها تاهت وضلَّت ، وأن أبصارهم عَمِيَتْ عن الطريق ، فقالوا : إنا لَضَالُّون .

ولما أفاقوا ، وعرفوا أنها هى حديقتهم ، وأن هذا هو طريقهم ، وأنها الحقيقة الفاجعة ، والضربة القاصمة ، وأن الحرمان لا يولِّد إلا الحرمان ، قالوا : بل نحن محرومون ، بل لقد كُتِبَ علينا ، أن نُجْزى بجزاء من جنس أعمالنا وإنما الأعمال بالنيات ، وقد نوينا أن نحرم ، فأخذنا الله بنيتنا .

* * *

حينذاك خرّوا نادمين آسفين ، مسبِّحين معترفين أنهم كانوا ظالمين . ظلموا أنفسهم ، وظلموا أباهم ، وظلموا الفقراء ، وظلموا هذه الجنة حين استنزلوا عليها غضب الله .

* * *

وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا : سبحان ربِّنا ، إنا كنَّا ظالمين ، كذلك العذاب ! وَلَعَذَابُ الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون .

الكهف

لقى النبى محمد عليه السلام مُقاومة وعَنَتاً شديداً فى محاولته مع قومه قريش حتى يُسْلِمُوا . وكان من مقاومتهم له ، أنهم بعثوا إلى أحبار اليهود ، يسألونهم فى مسائل مُعْضلة عويصة ، ليعرضوها على محمد ، فإن أجاب عنها ، آمنوا أنه نبى ، وإن عجز عنها ، كان مدَّعيا ، وكشفوه وهاجموه .

* * *

فقال لهم أحبار اليهود وعلماؤهم : اسألوه فى ثلاث .

اسألوه عن فتيةٍ ذهبوا فى الدهر الأول ، وما كان من أمرهم .

واسألوه عن رجلٍ طوَّافٍ ، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان نبأُه ؟

واسألوه عن الروح ، وما هو ؟

* * *

وللكهف سورة فى القرآن ، فيها قصص كثيرة ، غير قصة أصحاب الكهف . ففيها قصة الأَخَوَيْن المتحاوِرَيْن ، وفيها قصة الخضر صاحب موسى وقصة الطوَّاف ، وقصة الروح . ولكن أصحاب الكهف ، غلب أمرهم على كل ما فى السورة .

* * *

وأصحاب الكهف ، جماعة ذوُو فكرٍ ورأى ، وأصحاب عقيدة ، ولهم مبدأ ثبتوا عليه ، وضحَّوْا فى سبيله ، وهم دليلٌ جديد على صحة عقيدة البعث .

* * *

وهم كانوا شبابا ، وعقولهم نقية نيِّرة ، ونفوسهم زكية طاهرة ، وفيهم إباء وحَمِيَّة ، وقد نظروا فى قومهم ، فرأوْهم يعبدون الأصنام والحجارة ، وعزَّ عليهم أن يكونوا عبيداً لحجر ، خاشعين لصنم ، وأن يكونوا أسارى التقاليد ، وأن يساقوا إلى ذلك سَوْق العبيد ، بِسياطِ الملك .

* * *

وجمعتهم ندوة ، وما أخطر الندوات ، ففيها يتحرَّر الفكر ، وتتبدَّد سحائب الجهالة ، وجرى حديث الشباب فى الندوة ، عن سُخْف العقول التى تذِل لحجر منْحوت ، أو تمثالٍ مصبوب . ونظروا فى أنفسهم ، وفى الملكوت حولهم ، وفى مَنْ يا ترى خالقُ هذا الكون ، وواهبُ هذه النعم ؟

ودرسوا ، حتى اهتدوْا إلى الله ، بالفطرة السليمة ، والعقول الحكيمة .

فكانوا أصحابَ فكرٍ ورأى .

* * *

وكانوا فى مدينة أفسوس ، فى إقليم طرسوس ، فى شبه جزيرة طور سينا ، تحت حكم الملك الطاغية ، دقيانوس .

وخشى هؤلاء الفتيان ، أن ينكشف أمرهم ، ويطَّلع الملك والناس على خبرهم . فيعذبوهم ، أو يردوهم عن دينهم الذى اهتدوا إليه ، إلى ذلك الدين الذى اعتقدوا فساده و بطلانه .

وهم أصحاب عقيدة اعتنقوها ، وآمنوا بصحتها وسلامتها ، فاهتدوا إلى الله .

وهم أصحاب مبدأ ، لابد أن يثبتوا عليه ، وألاَّ ينكصوا عنه ، ولابد أن يضحوا فى سبيل هـذا المبدأ ، فقرروا فى ندوتهم هذه ، أن يفروا بدينهم إلى الله ، من وجه الغاشمين الـكافرين .

* * *

إذ أَوَى الْفِتْيَةُ إلى الـكهف ، فقالوا : رَبَّنَا آتِنَا من لَدُنْك رحمة ، وهيِّىء لنا من أمرنا رشدا .

فضربنا على آذانهم ، وألقينا عليهم النوم ، فناموا فى الـكهف سنين عددا .

ثم بعثناهم ، ليـكون بعثهم من نومتهم الطويلة ، دليلاً جديداً على صحة عقيدة البعث .

والبعث بعد الموت ، كان ولا يزال مَحَكّ رسوخ الإيمـان بالله ، ومثارَ الفتنة عند الملحدين ، ومزلقا يهوِى فيه مَن كان فى إيمانهم زَيْغ .

* * *

والناس لا يؤمنون إلا بالواقع المشاهد ، وكيف يسـوق الله إليهم يوم القيامة وقيام الساعة ، حتى يرَوْه بأعينهم ، ويشهدوا الصورة التى عليها يبعثون ؟

ويومُ القيامة فى غيب الله . لم يحن حينه ، ولم يأتِ أَوَانُه .

وكان لا بد لهم حتى يؤمنوا ، أن يُرِيَهم الله دليلاً محسوساً ، يشاهدونه ويحسونه . . .

فأمات الله ناساً منهم ، وطالت مَيْتتُهم سنين عددا ، ثم بعثهم .

والذى قَدَرَ على أن يبعث هؤلاء ، يقدر على أن يبعث الناس أجمعين .

* * *

وما الموت إلا شبيهُ النوم ، لا فرق بين الميت والنائم ، إلا نَفَسٌ يتردّد . اللهُ يتوفَّى الأنفس حين موتها والتى لم تَمُتْ فى منامها ، فيُمسك التى قضى عليها الموت ، ويُرسل الأخرى إلى أجلٍ مُسَمًّى .

فمالكم تستعظمون فكرة البعث ، وتمْتارون وتشكُّون فى الحياة الأخرى ، بعد هذه الحياة ؟

* * *

هؤلاء الفتية ، ناموا نوماً عميقاً ، ثم بعثناهم لنعلم ونُرِى الناس المختلفين فى تقدير عمر هذا النوم . أيّهم أقرب إلى الصواب فى إحصاء هذه الفترة .

نحن نقصُّ عليك نبأَهم بالحق ، إنهم فِتيةٌ آمنوا بربهم ، وزِدْناهم هدى .

وربطنا على قلوبهم ، وثبتناهم على عقيدتهم ، ورسَّخْنا إيمانهم .

* * *

والعاقل المفكر ، يُقلِّب الرأى ، ويمحِّص الفكرة ، حتى يخلص إلى عقيدة ، ومتى اعتقد ، تملكتْه عقيدتُه ، واستبدتْ به ، فلا يملك أن يتحرر من هذا الرأى ، الذى صنعه بتفكيره .

وهكذا كان أولئك الفتيان ، فقد اندفعوا تحت تأثير عقيدتهم ، وقاموا فى قومهم ، وأعلنوا دينهم ، وقالوا : ربُّنا ، ربُّ السموات والأرض ، لن ندعُوَ

من دونه إلهاً ، فإنْ دَعَوْنَا من دونه إلهاً ، فقد شطَطْنا وفَسَقْنا ، وكنا قوماً ضالين .

وإنَّ قومَنَا هؤلاء ، قد اتخذوا من دون الله آلهة وأوْثانا وأصناماً يعبدونها ، فياليتكم يا قومنا ، تأتون على دينكم هذا بسلطان بَيِّن ، ودليلٍ مُقْنع .

وإلا فإنكم مُفْتَرون على الله ، ومَن أظلمُ مِمَّن افترى على الله كذبا .

* * *

وقال بعض الفتيان لبعض : إننا أيها الإخوان ، قد قررنا أن نعتزل هؤلاء المشركين ، وأن نتخلص من دينهم ، وصممنا على ألا نعبد إلا الله ، فهيا بنا نهاجرْ بديننا ، ونُؤْوى إلى الكهف ، نُودِعْه سِرَّنا ، ونقيم فيه ، ولعل الله ينشر علينا من رحمته ، ويهيئْ لنا من أمرنا رشدا . ويرفق بنا فهو أرأف بالمؤمنين ، يهديهم الصراط المستقيم .

* * *

أليس من دلائل قدرة الله ، أن ينام هؤلاء الفتية ، فى فَجْوةٍ من الكهف ، تزورهم الشمس فى شروقها ، ثم تميل عنهم طول النهار ، فلا تزورهم إلا فى غروبها ؟

ذاك حنان الطبيعة ، تجعل الشمس تمدهم بأشعتها البنفسجية فى مشرقها ومغربها ، وتحجب عنهم أشعتها الحمراء المحرِّقة المؤرِّقة .

يا علماء الطبيعة ، يا مَنْ حلَّلتم الضوء ، وقرَّرتم أن أشعة الشمس ، حين الشروق وحين الغروب ، تتخذ طريقاً أطول فى وصولها إلى الأرض ، لشدة مَيْلها عليها ، فتكون أشعتها البنفسجية ، أوضح وأفعل فى الأجسام ؟

ويا علماء الطب ، يا مَنْ تعالجون المرضى بالأشعة البنفسجية ، أترَوْن أن لها أثراً فى بقاء هذه الأجســـاد النائمة مئات السنين ، لا يدركها عفَنٌ ولا نَتَنٌ ولا بِلَى ؟

ويا علماء النفس والعقل الباطن ، ماذا ترَوْن فى نومتهم الصاحية ؟ فهذه نضارة الصَّحْوة بادية على وجوههم ، وقد تفتحت عيونهم ، وكلما تعبت جُنوبهم من طول الرقاد تقلبوا على جنوبهم ، فما تعليل هذه النَّومة الصاحية ؟

وتحسَبُهم أيْقاظاً وهم رُقود ، ونقلِّبُهم ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال ، وكلبُهم باسطٌ ذراعيْه بالوَصِيد ، مُقْعِى بالباب ، لو اطَّلَعْتَ عليهم ، لَوَلَّيْتَ منهم فِرَاراً ولَمُلِئْتَ منهم رُعْبا .

* * *

وبعثهم الله ، وسيبعث الخلق أجمعين يوم القيامة ، كما بعث هؤلاء بعد طول رقاد . والزمن جنس واحد ، طال أو قصر ، وما جاز فى مئات السنين ، يجوز فى ملايين السنين .

وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم : قال قائل منهم : كم لَبِثْتُمْ فى نَوْمتكم هذه ؟ قالوا : لَبِثْنَا يوماً أو بعضَ يوم . ثم قالوا حين اختلفوا فى تقدير الزمن : ربكم أعلمُ بما لَبِثْتُمْ .

وما لنا نُطيل البحْث والتحرِّى فى معرفة عمر الزمن ؟

أليس النوم قطعةً من أعمارنا ؟ وأليست الأعمار من تقدير الله وحده ؟

وما لنا نجهد أنفسنا فى تفتيق حُجُب الغيب ، فلْنَدعْ الغيب لله .

ولنعشْ فى الواقع الحاضر الذى نحن فيه .

والواقع أننا فى حَيرة من أمرنا ، فهذه شعورنا المهدَّلة ، ولِحَانا الطويلة ، وأظافرنا كالحراب . ونَوْمتُنا المعمَّاة علينا فى فجوة الكهف .

ألا تشعرون بالجوع يُقوِّض ضلوعنا ، ويقرِّص بطوننا ؟

هيا ابعثوا أحدكم بوَرِقكم وفِضتكم . إلى المدينة ، فلْينظر أيها أزكى طعاماً فلْيأتكم برزقٍ منه ، ولْيتلطف .

والتلطُّف اصطناع اللطف والخفَّة ، وسُهولة المدخل والمخرج ، والتباعد عما يريب الناس ويثير شكوكهم فى مسلكه وطول لحيته ، وبروز أظافره ، وتخلخله فى مشيته ، من طول رقاده ونومه ، ولا يُشعِرَنَّ بكم أحدا إنهم إنْ يظهروا عليكم ، ويعرفوا أمركم ، يرجموكم أو يُعيدوكم فى ملتهم ، ولن تفلحوا إذاً أبدا .

* * *

ودخل رسولهم المدينة ، وعرض نقوده ، فأنكروها ، لقدم العهد بتاريخها ونقشها من عهد الملك دقيانوس ، وهو قد هلك منذ ثلاث مئة سنين ، وتسعِ سنوات .

فانكشف أمرهم ، وعرفوا سِرَّهم .

وتدارسوا تاريخ الفِتْية الذين فرّوا إلى الله بدينهم .

* * *

وتجلّت حكمة الله فى العثور عليهم ، فقد وضح لهم وللناس من حولهم ،

أنَّ وعد الله حق ، فهو يكرم المؤمنين ، ويحميهم من الكافرين ، ومَن يهد الله فما له من مُضلٍّ .

وليعلم الكافرون المنكرون ، أن الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها ، وأن الله يبعث مَن فى القبور ، وليعتقد الناس أن أصحاب الكهف دليلٌ جديد على صحة عقيدة البعث .

وهاج الناس وماجوا ، وراحوا إلى الكهف ، ليَروْا الفِتية المؤمنين ، وليعرفوا خبرهم ، وليتحدثوا إليهم .

ولكنهم دخلوا عليهم ، فوجدوهم قد بدءوا من جديد ، ينامون نومةً نائمةً أبديَّة .

فقالوا : ابنوا عليهم بنيانا ، ربُّهم أعلمُ بهمْ .

وقال ذوو الرأى فيهم لنَتخِذَنَّ عليهم مسجدا ، نصلى ونسجد فيه ، بقرب هؤلاء الفتيان الراقدين ، حتى نكون أقرب إلى الموعظة .

وحتى يتجدد لدينا ، حين كل صلاة ، دليلٌ جديد على صحة عقيدة البعث .

* * *

وذهب الناس مذاهب فى عدد هؤلاء الفتيان .

فمن قائل : إنهم كانوا ثلاثة ، والكلب رابعهم . وقائلٍ : إنهم كانوا خمسة والكلب سادسهم .

وقائل : إنهم كانوا سبعة ، والكلب ثامنهم .

وما الحكمة فى أنهم عدَّدوهم فى كل مرة بالعدد الفردى ، فإذا أضيف

إليه الكلب كان عدداً زوجياً ؟ لعل ذلك يرمى إلى فكرة الازدواج ، واصطحاب الرفيق فى الطريق .

قل ربى أعلم بعدتهم ، ما يعلمهم إلا قليل .

ولا تُمارِ فيهم إلاَّ مِراءً ظاهرا ، ولا تجادلْ فى شأنهم إلا جدالا خفيفا .

وإياك يا محمد ، أن تتحدَّى بعلمك الذى علَّمناك مَنْ لم نَمُنَّ عليهم بمثل علمك .

ولا تسأل مَنْ حَوْلك فى شأن أصحاب الكهف ، لا سؤالَ المسترشد ، ولا سؤالَ المتعَنِّت . فإن كنتَ مسترشدا ، فإن فيما علمناك الكفاية ، وإن كنتَ مُتعنتا متحدِّيا ، كان ذلك منك إعناتا للناس ، وتجهيلاً لهم ، وفيه تفضيحٌ للمسئول ، وتزييفٌ لما عنده وهذا مُخِلٌّ بمكارم الأخلاق .

ولا تَسْتَفْتِ فيهمْ منهم أحداً .

ويا محمد ، إياك أن تَعِدَ بشىء فى غدٍ من قبل أن تقول — إنْ شاء الله ، فَلعلَّ احتجاب الوحى عنك ، حتى أخلف وَعْدَك ، يُعلِّمُك أن تذكر قدرة الله قبل قدرتك ووعدَه قبل وعدِك .

ولا تقولَنّ لشىء إنى فاعلٌ ذلك غداً إلاَّ أن يشاء الله ، واذكرْ ربك إذا نَسِيتَ ، وقلْ عسى أنْ يَهْدِيَنى ربى لأقربَ من هذا رَشَدا .

الرجل الطواف

ويسألونك فى الثانية يا محمد عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكرا .

اسكندر الأكبر المقدُونى ، كانت له خصلتان من شعرٍ خشن ملتفّتان على جانبى جبهته ، وربما كان أغراه منظره ، فأُعجب بهما ، وبرَمَهُما حتى كانتا كحربتين فى جانبىْ رأسه ، وربما دهنهما بأدهنة كما يفعل بعض الناس فى شواربهم ، فيبرمونها ويفتلونها حتى يقف عليها الصقر .

فأصبحت الخصلتان كالقرنين . ومن أجل هـذا غلبت عليه التسمية فسُمِّى — ذا القرنين — .

* * *

وكان سؤال اليهود عنه ، عن الرجل الطواف . فيه تعْمِيةٌ وإلغازٌ ، ليختبروا محمداً فيما يخبر به فى هذه المسألة ، فجاء القرآن مُعْجِباً فى إخباره ، مبيناً أوضح علامة فيه ، تدل على قوة نفسه وجسمه ، وشجاعته وعزمه ، والشجاعة والإقدام أقوى أسلحة الحرب والغزو والطواف .

* * *

وهو رجل طيب صالح ، مكّن الله له فى الأرض ، بالعقل الحكيم ، والصحة والقوة والغِنى والعدد الكبير ، والجيش الكثير ، والهيبة والرهبة ، فاجتمع له العلم والقوة وعُدة القتال .

* * *

وسار بجيوشه نحو الغرب ، حتى أطل على المحيط الأطلنطى ، وحتى لم يبق أمامه شبرٌ من الأرض لم يستولِ عليه .

وماذا بعد غزو الأرض ؟ أيغزو الماء ؟ وماذا بعد غزو الماء ؟

ثم أين نهاية العالم ؟ لقد رأى قرص الشمس العظيم ، يصفرُّ ويتضاءل ثم يهوى ويسقط غارقا فى الماء والطين .

وسرح اسكندر سرحةً فى خيال وتأمل :

أهذه الشمس المدفئة المحرقة ذات الضوء الوهَّاج ، تذوى فى عين ماء ؟

أهكذا تنطفىء شعلة الحياة ، فنقع فى قبورنا ، كما تقع هذه الكرة ، فى عين الماء الحامية ؟

أهكذا يكون مصيرى فى عظمتى وقوتى ، مثلما صارت هذه الشمس فى عظمتها وقوتها ؟

أهكذا يذوى العالم ويذبل ، ويدخل بكل مافيه فى جوف الفناء ، حتى لا يبقى إلا قدرة الله ووجه الله !

وأليس الله القادر على إخفاء الشمس فى غروبها ، وإحيائها وبعثها فى شروقها ؛ أليس قادراً على بعث الخلق ، وما مثل الخلق إلا كنملٍ يدب على برتقالة ، وما البرتقالة إلا كرة الأرض ، وما الأرض إلا جزء من مليون جزء من الشمس .

ألفُ دليلٍ ودليلٍ على صحة عقيدة البعث ، ولكنَّ الناس لا يعقلون .

* * *

والتفت ذو القرنين ، فوجد قوما همجا ، يعيشون بلا دين ولا خلق ، كما تعيش الوحوش هائمة على وجوهها ، فلما دعاهم إلى الله ، لم يستجيبوا ؛ فسلطه الله عليهم :

قلنا ياذا القرنين ، إمَّا أَنْ تعذب هؤلاء على كفرهم ، وإما أن تتخذ فيهم حُسْناً ، بأن تصابرهم فى الدعوة ، كما يفعل الدعاة المصابرون ، أو تخفف تعذيبهم ، وتكتفى بأسرهم وأسْرُهم هو الحيلولة بينهم و بين ما يفعلون من جرائم وسيئات . وترشدهم إلى ما فيه خيرهم ، وتنهاهم عما فيه فساد مجتمعهم .

فقال ذو القرنين : أما من ظلم نفسه باتباعها هواها ، و إصرارها على كفرها فسوف نعذبه ، ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نُكْراً أليما .

وأما من آمن بدعوتى ، وعمل عملا صالحا ، واتبع ماأمرنا به ، واجتنب مانهيناه عنه ، فله جزاء الحسنى ، فى الدنيا ، نعامله معاملة المحسنين الصالحين وفى الآخرة يدخله ربه جنة النعيم .

وسنقول له من أمرنا يُسْرا ، فنستحسن منه إحسانه ؛ ونكافئه عليه ، ولا نكلفه شططا ، ولا نُعْنِتُهُ ولا نرهقه ولا نشقُّ عليه .

* * *

وأدار اسكندر وجهه نحو الشرق ؛ بجيوشه وخيله ورَجِله ؛ وسار وأبعد فى السير . حتى لقد خُيِّل إليه أنه وصل إلى أول العالم من شرقه ، كما كان وصل إلى آخره من غربه ووقف على حافة المحيط الأعظم ، وماذا بعد الماء ؟

لقد رأى الشمس تشرق من الماء . فوقف يتأمل فى صنع الله ، الذى أماتها فى غروبها ثم أحياها فى شروقها ، فأين كانت لما غربت ، ومن أين برزت لما أشرقت ؟

ويا ترى كيف باتت ، أسكنتْ عن حركتها وكفّتْ عن دورانهـا ، أم كانت تُطِلّ على أقوام آخرين غيرنا ؛ فجعلت ليلنا نهارهم ، وكان نهارنا ليلهم ؟ سبحانك ربى .

أين أنا : بعَدَدِى وعُدَّتى ، وسيفى ولأَمَتِى : ما نحن إلا هوَام وذَرَّاتٌ تهيم فى ملكوتك وما نحن إلا ضعاف عجزةٌ على شاطئ جبروتك .

وأتمَّ الإسكندر صلاته وتسبيحه . ثم التفت فرأى قوما هائمين فى الفلوات لا زرع ولا ضرع ، ولا سقف ولا ظل ، الريح بعَصْفها ، والشمس بوهجها ، قد دبَغتْ جلودهم ، وسوَّدتْ وجوههم ، وقست عليهم طبيعتهم ، فقست قلوبهم ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وصعبت طباعهم . فدعاهم الإسكندر إلى ربهم ، فلم يستجيبوا لدعوته ، فسلطه الله كذلك عليهم ، إما أن يعذب ، وإما أن يتخذ فيهم حُسْنا .

والله قد وكل إليه أمرَ هؤلاء الناس ، لأنَّ الله يعلم ما انطوى عليه صدر الإسكندر من العدل فى الناس ، وحب الخير ، وهداية الضالين ، وإصلاح مجتمعهم ، والسعى فى إسعادهم .

كذلك — وقد أحَطْنَا بما لدَيْه خُبراً .

* * *

وعاد الإسكندر الطَّواف ، فواصل زحفه بجيوشه متجها نحو الشمال ، وسار وأبْعد فى السير حتى بلغ بين السَّدين ، بين جبلين عاليين . فى أقصى الشمال من المعمور ، فوجد هناك ، فى الوادى المحصور بين الجبلين ناسًا

ولا كالناس ، كأنهم ليسوا من بنى الإنسان وإنما هم أشباه الحيوان ، لايكادون يفقهون قولا ، ولا يفهمون إشارة ولا رمزاً .

يأكلون النيِّىء ، ويتغذَّوْن بخشاش الأرض ، وينهشون العظم ، ويأكلون لحوم البشر ، فهم أَنَاسِيُّ الغابات ، وهم أدْنأُ السلالات ، وأحط المجموعات .

* * *

وعجب ذو القرنين ، ووقف ساهما يفكر فى شأن مجموعاتٍ وخلائق من بنى آدم ، تعيش هائمةً سائمةً كما تعيش العجْماوات ، ولا تدرى حلوًا من مر ، ولا حلالاً من حرام ولا سعادةَ من شقاء ، ولا نعيماً من جحيم .

* * *

وسرح الإسكندر يناجى نفسه ، ويتجه إلى ربه ، أتحاسب هؤلاء المخلوقات يا ربى ؟ أو تأخذهم بما منحتهم من عقول لم يستنيروا بها ، أم إن رحمتك يا ربى تُعْفى هؤلاء ؟ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ؟

* * *

وسأل عنهم جيرانهم ، فقالوا : ياذا القرنين ، إنَّ يأْجُوج ومأْجُوج ، مُفسدون فى الأرض ، فهل نجعلُ لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، يكفينا شرهم ، ويعيشون من خلفه وحدهم .

* * *

قال : ما مَكَّنَنِي فيه ربِّي خَيْرٌ ، فأعينونى بقوة ، وأمِدُّونى بالعمَّال والفعَلة ، وبأدوات البناء ، وأنا بجيشى ، ومَنْ معى ، من أهل الخِبرة والصناعة ، أجعلُ بينكم وبينهم رَدْمًا وسدًّا . آتونى زُبَرَ الحديد ، وقِطَعَ المعادن واصْهِرُوها ، واجعلوها ذَوْبًا ، وابنوا معى .

حتى إذا ارتفع البناء إلى أعلى سفح الجبلين ، قال : آتونى أُفْرِغْ عليه قِطْرا ، من هذا الحديد المصهور ، وصُبُّوه عليه ، واتركوه يبرد ويجمد .

وكان ذلك سدًّا من فولاذ ، أملس لا يستطيع أن يتسلَّقه إنسان ، ولا أن تخرقه أو تنقبه قوة .

فلما اطمأن عليه ، وأمِنَ غوائل هؤلاء الهَمَج ، يأجوج ومأجوج ، قال : هذا رحمةٌ من ربى ، إذ مَكَّننى أن أفْصِلَ بين الصَّالح والطَّالح ، والطَّيب والخبيث ، وبين الحق والباطل .

وستأمنون شرهم ، حتى يجىء وَعْدُ ربى يومَ القيامة ، فسيجعله ربى دَكًّا تُدَكْدِكُه نفخةُ الصُّور ، كما تُدَكْدِكُ الجبال ، فتجعلها هباءً مُنْبَثًّا ، وكان وَعْدُ ربى حقا . وتركْنا يأجوجَ ومأجوجَ ، بعضُهم يَمُوج فى بعضٍ ، ونُفِخَ فى الصُّور ، فجمعناهم جمعا ، والصُّور البُورى فى الجيش ، يعلن الانتباه ويوقظ النيام ، والمراد به إعلان أمرِ الله .

* * *

وهكذا كان إسكندر ذو القرنين ، الرجلُ الطواف حول العالم .

وهكذا كان دليلاً جديداً على صحة عقيدة البعث ؟

أفلا نعتقد ؟

عيسى

مريمُ ابنة عمران ، التى كفَلَها ورباها زكريا فى المحراب ، والتى أَحْصَنَتْ فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنَها آيةً للعالمين .

* * *

قالتْ الملائكة : يا مريم ، إن الله اصطفاكِ ، وطهرك ، واصطفاكِ على نساء العالمين .

قالت الملائكة : يا مريم إن الله يُبشِّرك بكلمةٍ منه ، اسمُه المسيحُ عيسى ابن مريم ، وجيهاً فى الدنيا والآخرة ، ومن المُقرَّبين ، ويكلم الناس فى المهد وكَهْلاً ، ومِنَ الصالحين .

* * *

واذكرْ فى الكتاب مريم ، إذ انتبذَتْ من أهلِها مكاناً شرقياً ، فى فى دارها ، ودخلتْ خَلْفَ ستارٍ ، اتخذته حجاباً بينها وبينهم ، لتستحمّ ، فأرسلنا إليها جبريل رُوحَنَا ، فتمثَّل لها بشراً سَوِيًّا ، جميلَ الخَلْق ، لطيف الطَّلعة ، مُسْتَوِىَ التكوين .

فلما رأته وهى عُرْيانة ، فزِعَتْ لوجود إنسانٍ غريب فى حَمَّامها ، فهو شابٌّ ، وغريبٌ ، ويقتحم عليها ، مع أنَّها استترتْ عن أهلها ومَحارِمِها ، قالت : إنِّى أعوذ وأحتمى بالرحمٰن منك ، حتى لو كنتَ رجلاً عابداً تقيًّا ،

حتى لو كنتَ معتصما بدينك ، يَرْدَعُك عن إرادة السُّوء بى ، فكيف بك إذا كنتَ فاجراً جريئاً تبتغى الشَّر منى ؟

قال جبريل : إنما أنا رسول ربِّك ، لأهَبَ لَكِ غلاماً زكيًّا .

فاندهشتْ العذراء البَتُول ، وفزِعَتْ فيه ، تسأله أسئلةً ثلاثةً متلاحقة : من أين يأتينى الوَلَد ؟ وكيف يكون وأنا لم أتزوجْ بَعْدُ ؟ وأليس عجيباً أن يكون لى ولدٌ وأنا شريفةٌ عفيفة ، لا أبيع جسدى للناس ؟

أنَّى يكون لى ولد ؟ ولم يمسَسْنِى بَشَرٌ ؟ ولم أَكُ بَغِيًّا ؟

وقال جبريل ، وهو فى صُورَةِ الشاب الجميل ، فى عَزْمٍ وحزْم وأمرٍ من الله : كذلك قال ربُّكِ فهذَا الذى تستعظمينه وتَستبعدينَه هيِّنٌ على الله . وتلك هِىَ إرادة الله سبحانه ، ولحكمةٍ فى قضائه ، أن يجعله آيةً للناس ، ودليلا على قدرته ، أن يخلق ولداً من غير أب ، كما خلق آدم من غير أب وأم .

وفى أيامنا هذه شغلتنا جرائد الغرب ومجلاته بالعذَارَى الحَوامل ، وبالعِلْم الحديث الذى لا ينفى أن تحمِل البنتُ وهى عذراء .

يأهلَ العلم ، حرامٌ عليكم ، لا تحمِّلوا العلم فوق ما يطيق ، وقرروا الحقائق إن كنتم صادقين . قولوا : إن العلم لا يمنع أن تتسرَّب جرثومة من نطفة الرجل إلى رحم البنت ، فتلتقى بجرثومتها ، فتتزاوج الجرثومتان ، فيكون الحمل ، وتنعقد نقطة الدم ، فتتكوَّن العَلَقَة ، ثم تكبر فتكون المُضغة ، ثم العظام فتتكسى العظام لحماً ، ثم تُنبعث فيه الروح فى الشهر الرابع ، فيتحرك ، فتحس به الحامل فى بطنها ، ثم يستكمل أشهرَ الحمل ، وكل ذلك من

خلْفِ غِشاء العُذرة ، وتبقى الفتاة عذراء حتى يحين وضع الحمل ، فينفتق كلُّ شيء حتى غشاء العذارة .

ذلك ما لا يمانع فيه العلم .

أما الذى لا يصدقه العقل ، ولا يعترف به دينٌ ، ولا ملّةٌ ، ولا خُلُق ، ولا مجتمع ، ولا مجامع أطباء الدنيا ، أن تنْعقد نقطة الدم من جرثومة المرأة وحدها . إذ لا بد فى الكهرباء من سالِبٍ ومُوجب ، والسالب وحده أو الموجب وحده ، لا يخلق كهرباء عاملة . والنبات من بذرة تتجاوب مع خصوبة الأرض .

وما كان أبداً أن خُلِق جنينٌ فى بطن أمه من غير جرثومة الرجل إلّا هذه الحالة المعجزة ، التى لله وحده ، حالة عيسى ابن مريم .

وهنا نسجل هذه الحالة التى وقعت فى ريفٍ من أرياف مصر ، إذ حملت بنت عذراء ، فانقبض لذلك الأهل والأنْسِباء والمُصَاهرون .

وهمُّوا بها على عادة الريف ليقتلوها .

وكان أن أدركتها عناية الله ، وكان أن رحمها بالحقيقة لما اتَّضحتْ : كان أبوها الريفى مع أمها منذ قريب ، وقبل أن تنقضى ست ساعات من ذلك اللقاء ، وهى العمر المقرَّر لبقاء الحياة فى جراثيم النطفة ، حدث أنْ خلع الأب سِرْواله ، وتركه لبنته لتغسله ، وهى فى بيتها تلبس أىَّ غُلالة تسْترها ما دامت من وراء بابها ، وبينما هى تغسل ، طرق الباب طارق ، فكان لا بدَّ لها من أن تفتح الباب للطارق ، ولا تفتح وهى بهذه الغلالة الرقيقة على جسدها ، فلا بدّ أن تلبس سروالا ، وأىُّ سروالٍ يكفى ، فلبستْ سروال أبيها ، وفيه

الجراثيم المنوية حيَّة ، فتسرَّبت إليها جرثومة ، إلى رحمها ، فحملت وهى عذراء . وكانت هذه الضجة .

هذا هو الرأى ، ألَّا حملَ ولا جنينَ إلا من بين امرأة ورجل .

ولا بدّ من جرثومة الرجل ، فلا تكفى جرثومة امرأة إلى امرأة كما فى السحاق بين امرأتين .

* * *

يأهل العلم لا تفتحوا هذا الباب ؛ فتُهوِّنوا جريمة الحمل من غير رجل ، ولا بد من رجل ، ظهر أم خفى ، فى حِلٍّ أو فى حرمة ، فذلك شأنٌ آخر .

* * *

لقد شقَّت هـذه المعجزة على العقول ، فتحركت لتعليلها ، وأخذ بعض المفسرين للقرآن ينتحل لها بعض ما يُهَوِّنُها على الأفهام . فقال : إن الحكمة فى أن الله بعث جبريل إلى مريم ، وهى عريانة متجردة ، وفى الحمام ، وشكَّله فى صورة شاب قوى بادِن ، وسيم ، جميل الطلعة ، أمرد ، سَوِىِّ الخَلْق ، لتستأنس بكلامه ، و . . . ولتهيج بذلك شهوتها ، فتنحدر نطفتها إلى رحمها ، وذاك وقت لتلك !

* * *

وأراد الله يا مريم أن يجعله رحمةً للناس ، يهديهم . ويأخذ بيدهم من ظلام الكفر والشرك إلى نور الهداية والإيمان بالله . وليمحو من عقائدهم نكران عقيدة البعث . ولتُشرب قلوبهم الاطمئنان إلى قدرة الله على الخَلْق بأية صورة ، وعلى الإعادة . والإعادة أهون من الإنشاء والبدء .

وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه .

* * *

وكان لمريم موقفٌ عجيب ، مريم بنت عمران ، التى رُبِّيَتْ فى المحراب ، بكفالة النبى زكريا ، زوج خالتها ، وهى التى اصطفاها الله وطهَّرها ، واصطفاها على نساء العالمين أجمعين . قُدِّرَ عليها أنْ تحمل ، وأن يُخْلق فى جوفها جنين ، وأن يتحرك ، وأن يكبر ، فيكبر بطنها ، وتظهر عليها أعراض الحمل ، التى ترى على الحوامل ! وماذا يدور فى خلدها ؟ وكيف كان وقْعُ ذلك عليها ؟

وماذا يقول الناس فيها ؟ وماذا يجرُّ ذلك على سُمعة أهلها ؟

* * *

لِتَكُنْ إرادة الله ومشيئته ، فى بلائه وقضائه ، فلتستتر فترة ، وليكن بعدها ما قدَّر الله .

فحملته ، فانتبذت به مكانا قصيا ، تبعد به عن القوم ، ولتعتكف فى فى ركن من الدار ، أو فى دار أخرى غير الدار ، وأهلها يعلمون من أمرها ، أنها طويلة الاعتكاف فى التبتُّل والعبادة .

حتى جاءها المخاض ، وعوارض الوضع ، وما يسبق الولادة ، من وجع وطلق ، واسترخاء فى الجسم ، وترهّل فى اللحم ، تمهيدا لبروز الجنين ، إلى عالم النور ، وهى وحيدة ، لا مؤنس ، ولا مؤاسى ، ولا مشجِّع ، إلا نخلة فى الدار ، فقامت إليها ، واستندت عليها ، واحتضنتها ، وكلما مزقت فى رحمها الطلقة ،

وعنُفَ بها الألم صرخت واستغاثت ، وقالت : يا ليتنى مِتُّ قبل هذا ، وكنتُ نسْياً مَنْسِيًّا .

* * *

وما كان تمنّيها أن تموت وتُنْسى ، من ألم الولادة ، فكل حبلى تقاسى ألمًا ووجعاً فى ساعة الولادة . وإنما كان ذلك من هول نتائج الولادة ، وأن يصبح تحتها ولدٌ ، وتأتى الناس على صياحه ، فتقع أعينهم على حَدَثٍ فاضح ، وأىّ فضيحةٍ أن يكون ولدٌ ولا والد ؟

وليس من وراء ذلك إلا أن ينظروا إليها ؛ وهى قد خدعتهم بصلاتها وصيامها وقيامها ، وأنها بعد ذلك لم تصُنْ نفسها ، وأنها جرّت مقالات السوء على أهلها ، وكيف يستقبلون ولدها ؟ أهم يُبقْون عليه ؟ أم هم قاتلوه وما أذنب ؟ ومن يُربّيه ، وإلى مَنْ تنسُبه ، والولد منسوبٌ لأبيه ، وبماذا تسمّيه ؟

أَبيدِى أقتله أنا ؟ هو ولدى ! وقطعةٌ حرّى من كبدى !

أستغفرك يا ربى ، فقد وعدتنى ، أنك ستجعله آية للناس ورحمة ، ولا تكون آيتُك يا ربى من زِنى ، ولا تكونُ رحمتُك يا الله مِنْ حرام !

أستغفرك يا الله ! ولتكن إرادة الله !

* * *

ومِنْ خلال تلك الأطياف التى تمزّق رأسها ، سَمِعتْ نداءً من تحتها : ألاّ تحزنى يا مريم ، فإن كنتِ وحدك ، فالله معك ، وهو أرحم بك .

إن هذا الوليد الذى نزل منك ، وما يزال تحتك ، سيكون سيدَ الناس ،

نبيلا كريما ؛ وسريًّا عظيما . وقد جعل ربُّك تحتَكِ سَرِيًّا . وسَرِيُّ الناس نبيلُهم وسيدهم .

لا يصلح الناس فوضى ، لا سراة لهم ولا سراةَ إذا جُهَّالهم سادوا

* * *

ولا عليك يا مريم ، فأنتِ فى غنى عن الناس ، قومى وتحركى ، ولا تتخاذلى وهُزِّى جذع النخلة ؛ يتساقط عليك رطبُها جنِيًّا ، فكلى واشربى ، واهدئى ، واطمئنى ، وقرِّى عينا .

وأريحى نفسك من كلام الناس ، ولا تَرُدِّى عليهم إذا سألوك ، ولا تغضبى إذا أغضبوك ولا تثورى إذا اتهموك ، واخلصى من كل ذلك وأعلنى الصيام عن الكلام ، فالله سيتولى الدفاع عنك ، وسيُعْلن براءتك .

وهزِّى إليكِ بجذع النخلة ، تُساقِطْ عليك رطباً جنيًّا ، فكلى واشربى ، وقرِّى عينا ؛ فإمَّا تَرَيِنَّ من البشر أحدا ، فقولى : إنى نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلِّم اليوم إنسيًّا .

* * *

وكان لابد للمؤمنة ، الواثقة من ربِّها ومن نفسِها وعفَّتِها ، أن تطمئن ، وأن تستردَّ قواها ، وأن تقْوى مَعْنويَّتها ، فأتت به قومها تحمله :

يا لِلْهول . ويا لِلْفضيحة والعار ، مريم العذراء البَتُول ، تحمل طفلا على كتفها ؟ وتدخل على أهلها ؟

ماذا أصابها ؟ أهى تتحدَّاهم بفعلها ؟ أم تَبْغى أنْ يَتَسَتَّروا عليها ؟ أم هى جاءتْ لتَضَعَ نفسها ووليدَها بين أيديهم ليثأروا لشرفهم منها ؟

وانهالتْ عليها أسئلتهم : يا مريم ؟ لقد جئتِ شيئاً فرياً ! جُرْمًا لا تُحتمل نتائجه ! يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأَ سَوْءٍ ، وما كانت أمُّك بغيًّا ؟ تبيع نفسها للناس ! ويا مريم ، الفاحشة من بَنات الصالحين أفحش !

* * *

فأشارت إليه ، فكانت إشارتُها إثارةً لهم ، وإهاجةً لأعصابهم ، وامتهاناً لتفكيرهم ، فهمُّوا بها ، وقالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا !

وما خلَّصها من أزمتها ، وحَرَج موقفها ، والشر المحيط بها ، إلا رحمةُ الله أدركتها . وبركاتهُ حلَّتْ على ولدها ، فأنطقه الله شاهدا على براءتها ، ومُعْلِناً طهارتها ، ودافعا هجوم القوم عليها ، ولكن بكلامٍ غير ما يألفون ، وبدفاع غير ما يتوقَّعون .

وأىُّ براءةٍ وطهارةٍ وقدسية ، أكرم من أن ينطق بها الوليد ؟ وهذه معجزته ؛ وكرامةٌ لأمه ، فكان أن سجَّل أنه عبدٌ لله ، وعبد الله لا يكون إلا طاهراً من طهارة . وأنه عبد الله ، وليس ابنَ الله . وأنه نبىُّ الله ، مِنْ عند الله ، لا من عند الشيطان ، وأن الله قد منحه البركة ، وجعله حِصناً لأمه ، وجعل فى علاجه الشفاء ، فيُبرئ الأعمى والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، وأن الله وصَّاه أن يكون مصليا مزكيا ، وأوْصاه أن يكون بارًّا بأمه ، يكرمها ويشرفها ، وأمره ألاَّ يتجبر ولا يتكبر ، وألا يُشْقِيَ نفسه بالمعاصى ، وألا يُشْقِيَ الناس بطغيانه عليهم أو بإشاعة الفساد فيهم .

وأن الله منحه السلام عليه ، كما سلم على زكريا من قبله ، والسلام أمانٌ

يحمله إلى قومه ، فهو فى سَلاَمٍ وأمانٍ من يوم وُلد ، وهو فى أمانٍ من أعدائه الذين هموا بقتله ، يوم رفعه الله ، وفى أمانٍ من غضب الله يوم البعث .

قال : إنِّى عبد الله ، آتانِىَ الكتاب ، وجعلنى نبيًّا ، وجعلنى مباركا ، أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ، وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلام علىَّ يوم وُلدت ، ويوم أَموت ، ويوم أُبعث حيًّا .

دفاعٌ طويلٌ عن جناية ، أمام حُكَّامٍ غاضبين ثائرين ، فأبْلى عيسى فى دفاعه ، وكسَب البراءة لأمه ، ورسم معالم دينه ، وخطَّ الخطوط العريضة فى دستور الأخلاق ، ونشر راية السلام على نفسه وعلى قومه .

ومريم تُنصت للدفاع ، وتسجد شكراً لله على البراءة ، ويَنْزاح همُّها ، وتهدأ نفسها ، وتطمئن إلى الله ، فقد صدق وعدُه فيها .

* * *

وهى من أجل هذا ، أدارتْ ظهرها للناس ، وسدَّت أُذنيها عما يقولون ، ووضعتْ عيسى بين عينيها ، فاحتضنته وربّتــه ، وأقامت به زمناً فى بلدها الناصرة ، ورحلت به فترة إلى بيت المقدس .

و بيت المقدس مَرْبِضُ الأديان ومَحِلَّة دين موسى ، ومسكن الأحبار والرهبان .

وجعلنا ابن مريم وأمه آية ، وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين .

* * *

ويتسلل عيسى ، وهو غلام ، إلى مجالس الأحبار والرهبان ، من علماء اليهود ، من حَمَلةِ التوراة ، وشارحى التعاليم ، ومعلمى الدين . فيتتلمذ عليهم ،

ويحاورهم ، ويأخذ عنهم ، ويجادلهم ، ويضيق صدره بما يفترون ، ويضيقون به حين يعترض على ما يقولون .

ويعلمه الله الكتابَ والحكمة والتوراةَ والإنجيلَ ، ويبعثه رسولا إلى بنى اسرائيل .

وبنو إسرائيل قد ضلوا ، وعمُوا عن دين موسى ، وأنكروا اليوم الآخر ، والبعث وكذبوا بالحشر والحساب على ما قدموا ، وكفروا بالجنة والنار ، وشغلتهم الدنيا بزخرفها ، وانكبُّوا على المال يجمعونه من حِلٍّ ومن حرام ، حتى تاجروا بدينهم ، واستغفلوا الناس ، ونزفوا ثرواتهم باسم الدين . وإن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

وكفروا ، وقالوا على مريم بهتاناً عظيما ، واتهموها ، ونهشوا عرضها ، بعد أن أظهر الله على أعينهم براءتها ، وما مَثَلُ عيسى عند الله إلا كمثل آدم ، خلقه من تراب .

لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل ، على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصَوْا ، وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهَوْن عن مُنكرٍ فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيحَ ابن مريم ، وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون .

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره .

* * *

وقفَّينا على آثارهم ، بعيسى بن مريم ، مصدقاً لمن بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل ، فيه هدى ونور ، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظةً للمتقين .

* * *

وقال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، قد جئتكم بالحكمة ، ولأُبَيِّنَ لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعونى ، إنّ الله ربِّى وربكم فاعبدوه ، هذا صراطٌ مستقيم .

إنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلُق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، وأُبْرئ الأكمه والأبرص ، وأُحْيي الموتى بإذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدَّخرون فى بيوتكم . إنَّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ، ومُصدقاً لما بين يدىَّ من التوراة ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذى حُرِّم عليكم .

* * *

دعوةٌ عاقلة ، ودينٌ هادىء ، ورسالةٌ نيِّرة ، فاختلفوا عليه ، وضنُّوا بهيْبتهم أن تزول ، وبسيْطرتهم على الناس أن تهون .

وعزَّ عليهم أن تجرُفهم رسالةُ عيسى بن مريم ، وقد كان منذ قريبٍ يجلسُ إليهم ويطلبُ العلم بين يديهم ، وكذَّبوه ، وتألَّبوا عليه ، وكادوا له .

فلما أحسَّ عيسى منهم الكفر ، قال : مَنْ أنصارى إلى الله ؟ ومَن هم الذين يستجيبون لدعوتى فى الله ؟ ومَن مِنكم يؤمن بالله ؟ .

قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنَّا بالله ، واشهدْ بأنَّا مسلمون .

والحواريون تلاميذه ومُرِيدُوه ، والمؤمنون به ومصدقوه ، وهم السابقون الأولون فى دينه . وهم الحافظون لإنجيله ، الدارسون لكتابه ، المفسرون لآياته ، المسجِّلون لأناجيله ، وهم الذين سُمِّيتْ الأناجيل بأسمائهم ، فإنجيل متى ، وإنجيل يوحنا ، وإنجيل برنابا ، وأناجيل كثيرة .

وقد كتَبَ كل حواريٍّ إنجيله ، بحسب ما وعى وروى عن نبيه ، وبحسب ما ترسَّب فى ذهنه من صحبة عيسى ، فقد رفعه الله بغتة من قبل أن يُمْلى كتابه .

* * *

فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويلٌ للذين كفروا من مشهد يوم عظيم .

اختلف بنو إسرائيل شيعاً ومذاهب فى شأن عيسى .

فمنهم الكافرون الحاقدون الجاحدون ، الذين لا يطيقون أن يكتسحهم عيسى ، بقوة إيمانه ، ونور يقينه ، وهم لا يهتدون ، ولا يرتضون إلا أن يطوُوا صفحته ، ويمحُوا ملَّته ، ويقضُوا على حياته .

ومنهم الذين آمنوا به على جهالة ، وعُقمٍ فى الفهم ، وإغراقٍ فى الغُلُوِّ ، وانهيارٍ فى التفكير ، وزيغٍ فى العقيدة ، حتى قالوا : إن عيسى ابنُ الله ، وحتى قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وقالوا : الأبُ والابْن والروحُ القدس .

ومنهم الحواريون ، وهم المؤمنون الدارسون ، حاملو رايته ، ومُوثِّقُو دعوته ومواصلو رسالته ، ومسجِّلو كتابه ، وأنصارُه إلى الله . وأقربهم مودة للذين آمنوا .

ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ، وأنهم لا يستكبرون .

وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ، ترى أعينَهم تفيض من الدمع ، مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربَّنا آمنا ، فاكتبْنا مع الشاهدين .

وما لنا لا نؤمن بالله ، وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يُدخلنا ربُّنا مع القوم الصالحين ، فأثابهم الله بما قالوا ، جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار .

وجعلنا فى قلوب الذين اتَّبعوه رأفةً ورحمةً ، ورهبانيةً ابتدعوها ، وأوغلوا فى الخوف من الله ، والانقطاع لعبادته ، رهبةً منه ، واختطوا لأنفسهم هذه الرَّهبنة من قبل أن يفْرِضَها الله عليهم ، تطوعاً منهم وتبتُّلا ، وما اندفعوا إليها ، إلا ابتغاء رضوانِ الله .

ففريق التزمها ، وأخذ نفسه بها ، وفريقٌ زاغ فيها ، وصدَّ عنها .

فما رَعَوْها حقَّ رِعايتها ، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرَهم ، وكثيرٌ منهم فاسقون .

* * *

وقال عيسى ، يُذكِّر بنى إسرائيل ، أنهم كانوا أهل كتاب التوراة ، الذى جاء به موسى ، ويؤكِّد عقيدة التوحيد ، قال :

يا أهل الكتاب : لا تَغْلُوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكَلِمَتُه ألقاها إلى مريم ، وروحٌ منه ، فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا ، خيرًا لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما فى السموات وما فى الأرض .

* * *

لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، قلْ : فمَنْ يملِك لكم مِنَ الله شيئاً ، إنْ أراد أن يُهلك المسيحَ ابنَ مريم وأمَّه ومَنْ فى الأرض جميعاً ؟

* * *

لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيحُ ابنُ مريم ، وقال المسيح : يا بنى إسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربَّكم ، إنَّه مَنْ يُشْرِكْ بالله ، فقد حرَّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار .

* * *

لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالثُ ثلاثةٍ ، وما مِنْ إلٰهٍ إلاَّ إلٰهٌ واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ، ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم .

* * *

فما بالُ هؤلاء الناس ؟ يُسرفون على أنفسهم بالتَّغالى فى حبِّ عيسى حتى ألَّهوه ، وما هو بإله ؟

ما المسيح ابن مريم ، إلا رسولٌ قد خلَتْ من قبله الرسل ، وأمُّه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام ؟

وما بالُ هؤلاء القوم ، يظُنُّون بعيسى الظنون ، ويُثقلون عليه ، فكانوا من صَدَاقته ، مكانَ الدُّبَّةِ الصَّدِيقة ، الجاهلة فى صداقة صاحبها ، وبِجَهْلِها وحُمْقها جَنَتْ عليه .

* * *

لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكةُ المقرّبون .

وما بالُهم أحْرجُوه ، وافتَرَوْا عليه ، حتى جعلوه فى موضع التحقيق والسُّؤال من ربه ، وإذْ قال الله : يا عيسى ابن مريم ، أأنت قلتَ للناس : اتخذونى وأمِّىَ ، إلٰهيْن من دون الله ؟ قال عيسى : سبحانك يا ربى وأستغْفرك ما يكون لى أن أقولَ ما ليس لى بحق ، إنْ كنتُ قلتُه ، فقد علمتَه ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلمُ ما فى نفسك ، إنَّكَ أنتَ علاَّمُ الغُيوب ، ما قلت لهم : إلا ما أمرتَنى به ، أن اعبُدوا الله ربى وربَّكم ، وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم . فلما توفَّيتَنى ، كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم ، وأنتَ على كل شىء شهيد !

* * *

وما بالُ هؤلاء القوم يتشبثون بالتثليث ، والتثليث كُفرٌ ومُرُوق من حظيرة الأديان .

إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ، ويغفر ما دون ذلك لِمَنْ يشاء .

* * *

وما موقفُنا نحن المسلمين من هؤلاء ؟

وما حكمُ مَنْ يتودَّد إليهم ، ويتخذهم أصفياء وأولياء ؟

* * *

يأيها الذين آمنوا : لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضُهم أولياء بعض . تُلْقون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم .

ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل .

إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وَوَدُّوا لو تكفرون .

لن تنفعكمْ أرحامُكم ولا أولادُكم يوم القيامة يفصل بينكم ، وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءهُ ، وهو الحق مصدقاً لما معهم .

أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزىٌ فى الحياة الدنيا . ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب . وما الله بغافل عما تعملون .

وكل متبعٍ لعيسى حوارىّ ، وحواريُّوه طبقات ، وفى الطبقات درجات ، ودرجات رسوخهم فى الإيمان مختلفات .

فالراسخون فى العلم منهم يقولون : ربَّنا آمنا ، فاكتبنا مع الشاهدين ، الذين شهدوا مَبْعث النبى العربى محمد ، الذى بَشَّرْتَ به ، فقلت : ومُبَشِّرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد .

فآمنا به ، واتَّبعناه ، فدِينُه مُصدِّقٌ لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، وجاءنا بالقرآن فيه هدًى ونورٌ للناس .

وقال الذين لم ترسخْ أقدامُهم ، ولم تُفْعَم بالإيمان قلوبُهم ، ياعيسى ابن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزِّلَ علينا مائدةً من السماء ؟

وفزع عيسى فيهم ، من زعزعة إيمانهم ، وتخلخلِ يقينهم ، وجرأتِهم على ربهم ، وقال خائفاً عليهم : اتقوا الله إنْ كنتم مؤمنين .

ولعلهم كانوا جياعَ البطون ، وجياعَ النفوس ، وجياعَ الاعتقاد ! ولمح فيهم أثرَ الهبوط ، وسيما الهفوت ، وسحابةَ الشك والقنوط .

ورأى أن يطرق الحديد المحمَّى قبل أن يبرد ، وأن يضيء فى الظلمة قبل أن تحلِكَ وتدلَهِمَّ ، وأن يمحو الشكَّ باليقين ، وأن يُلزمهم الحجة ، وأن يأخذهم بما تحدَّوْد . حين قالوا : نريد أن نأكلَ منها ، وتطمئنَّ قلوبُنا ، ونعلمَ أنْ قد صدقْتَنَا ، ونكونَ عليها من الشاهدين .

قال عيسى : اللهمّ ربَّنا ، أنزلْ علينا مائدةً من السماء ، تكون لنا عيداً لأوَّلِنا وآخِرِنا ، وآيةً منك ، وارزقْنا ، وأنتَ خير الرازقين .

قال الله : إنى مُنزِّلُها عليكم ، فمَنْ يكفرْ بعدُ منكم ، فإنى أُعذِّبه عذاباً ، لا أُعذِّبه أحداً من العالمين .

* * *

ويا ليتَهم أشبَعُوا جُوعَة بطونِهم ، ونفوسِهم ، وعقيدتِهم ! حين استجاب الله لعيسى ، وحقَّق رغبتهم ، وأجابهم إلى تحدِّيهم !

ولكنَّ فريقاً منهم ، ما قَنَعَ بالمائدة ، حين رآها تَنْزِلُ عليهم بين سحابتيْن ، ولا اقْتَنَع بما زَخَرتْ من ألوان الطعام والفاكهة .

فخَانُوها ، وحنَثُوا بوَعْدِ الله ، وبوَعْدِ عيسى .

فعذَّبهم الله عذاباً شديداً ، لم يعذِّبْه أحداً من العالمين ، يومَ همُّوا بعيسى ليقتلوه ، فاختفى ، وألقى اللهُ شبَهَهُ على يَهُوذا ، الذى غدَرَ به ، ودلَّهم على المكان الذى اختفى فيه ، ودخل عليه ، ليُخرجَه إليهم ، فما وَجَدَه ؛ وخرج إلى القاتلين وقد ألقى الله شَبَهَ عيسى عليه ، فأخذه الله به وأخذوه وقتلوه وصلبوه . وما قتلوا عيسى ، وما صلبوه ، ولكن شُبِّه لهم .

بل رفعه الله إليه . وكان الله عزيزاً حكيما .